مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ر ت م د: 7163 -1112 ر ت م د إ :2588-1892
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2

الحواضر العلمية والثقافية في خلافة سكوتو الإسلامية خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

The Scientific and cultural metropolis in the Islamic Sokoto caliphate during the nineteenth century AD.

عومار عطية[1]، محمد حوتية[2]

1 -جامعة غرداية: salimsami78@yahoo.fr

2 -جامعة أحمد دراية أدرار mohammedhoutia@univ-adrar.dz

تاريخ الاستلام: 2020/07/28 تاريخ القبول: 2021/01/31

الملخص -

تعنى هذه الدراسة بتوضيح أهم الحواضر العلمية التي شهدتها بلاد الهوسا خلال القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر ميلادي زمن الخلافة السكوتية.

كانت للخلافة السكوتية دور مهم في تشجيع الحركة العلمية صاحبه تقدير للعلم واحترام للعلماء من قبل الجميع، مما ولد ازدهار، ونشاطا علميا كبيرين، تجلت صوره بنمو المؤسسات العلمية، وتعدد مراكزها. فأضحت مدن: سكوتو وكانو وكاتسينا وزاريا وغيرها محطات علمية يقصدها الراغبون بالعلم

الكلمات المفتاحية -

خلافة سكوتو ,بلاد الهوسا, عثمان بن فودي،محمد بلو,الحواضر العلمية

المؤلف المرسل: عومار عطية: salimsami78@yahoo.fr

Abstract-

This Study is concerned with the Scientific centers in the thirteenth century AH and the nineteenth century AD in the country of hausaland during the time of the sokoto caliphate.

The sokoto caliphate played a significant role in sponsoring culture. This was coupled with an appreciation of learning and respect for scholars by the people. All this led to remarkable activities. Manifested by the growth and spreading of academic institutions. Thus the cities of sokoto, kano, katsina, Zariaand other cities became major academic centres frequented lovers of learning all over the hausaland.

Key words-

(Caliphate Sokoto, The Scientific Life, Ottoman Dan fodio, Mohammed Bello, hausaland)

- مقدمة:

أقام الفلانيون بقيادة الشيخ عثمان بن فودي، خلافة سكوتو الإسلامية في بلاد الهوسا في مطلع القرن التاسع عشر، وقد أضطلع حكام الخلافة السكوتية بدور مهم في تشجيع الحركة العلمية، صاحبه تقدير للعلم واحترام للعلماء، مما ولد ازدهارا عمرانيا، ونشاطا علميا، تجلت صوره، بنمو المؤسسات العلمية، وتعدد مراكزها، فأضحت مدن مثل سكوتو وكانو وكاتسينا وزاريا وإيلورن، وغيرها محطات علمية يقصدها الراغبون بالعلم من أنحاء البلاد. وفي مقابل ذلك، نشطت الحياة العلمية، وفي تلك الفترة، شجع الحكام الفودييين إحياء اللغة العربية واستخدامها والكتاية بها. فظهرت بثوب جديد تمثل استعمال الحرف العربي في مختلف اللغات المحلية كاالهوساوية والفلانية واليورباوية، وأخد الكثير من المفردات العربية، وبالتالي شهد عهد الفودييين ظهور أدب إفريقي باللغات العربية وغيرها من اللغات المحلية، وسمي بالأدب الإسلامي المكتوب باللغة الهوساوية والفلانية واليورباوية، كما نشأت فئة من الأدباء تكتب باللغتين العربية والهاوساوية وغيرها، وكان لهم أثر كبير في تنشيط حركة الترجمة والتأليف، فعاشت خلافة سكوتو نهضة أدبية وعلمية لعل أبرز سماتها حركة التأليف الواسعة.

وفي هذه الدراسة نستعرض أبرز هذه الحواضر العلمية التي شهدتها خلافة سكوتو الإسلامية زمن حكم الفودييين خلال القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر الميلادي، وتدرس الحالة التي وصلت إليها الحياة الأدبية، والعلوم العربية والإسلامية، وعلوم الأوائل.

لقد برزت العديد من المدن والمراكز الحضارية التي تطورت وازدهرت ومازلت تحتفظ بكثير من معالمها الأثرية التي تشهد على العمق الحضاري الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء. وقد أصبحت هذه المدن حواضر علمية وثقافية مقصدا للطلاب والعلماء على حد سواء، وأصبح لها دور بارز في تنشيط الحياة الفكرية والثقافية الذي لا يختلف عن مثيلاتها من مدن المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي.

1 -الحواضر العلمية في خلافة سكوتو:

شهدت عدة مدن حضورا هاما كمركز تجاري مشهور، وإشعاع ثقافي وعلمي بارز، ومن بين أهم هذه الحواضر العلمية نذكر ما يلي:

1.1 -حاضرة الخلافة العاصمة سكوتو(sokoto) :

من بين أهم الأعمال التي قام بها السلطان محمد بلّو إنشاؤه مدينة سكوتو (Sokoto)في سنة 1227هـ/1812م"(محمد بلو، 2011، ص190) ، حيث يقول في مؤلفه إنفاق الميسور" ولما حان الخريف بنيت للشيخ حصناً بجنب معسكرنا بسيفاو، فانتقل إليه، متعنا الله ببقائه وجعل العاق به خيراً. وبنيت على معسكرنا حصناً، فكانت قرية سكت عمارة إسلامية. وفي ذلك قلت:

بسكت فذات التل دون المناهل لسعدي ديار يا لها من منازل

وجاد عليها كل أسحم هاطل بلاد تمناها ذووالرأي قبلهـا"

(محمد بلّو، 2011، ص120).

وترجع أسباب ذلك إلى أن محمد بلو رأى أن الدولة الجديدة بحاجة إلى عاصمة يكون موقعها حصينا، وأرضها خصبة مناسبة لاستقطاب عدد كبير من السكان فاختار لها موقعا على قمة تل منخفض، على الضفة الشمالية لأحد روافد نهر النيجر، وهي مسورة بواسطة جدار حوالي ثلاثين قدم في الارتفاع

(Donald Mackenzie,1877, pp129-131)، ويمثل موقعها ملتقى تقاطع الطرق حيث غوبر في شمالها، وكبي في جنوبها وبورمي وزمفارة في شرقها (Murry last, 1967, p42)ولم يمض وقت طويل على إنشائها حتى أصبحت مركزا ثقافيا وتجاريا كبيرا، بل إنها أصبحت محط الأنظار في النواحي العلمية والثقافية والأدبية والسياسية، ومما ساعدها على احتلال هذه المكانة المرموقة عناية محمد بلو الفائقة لها، فقد أعطاها جل اهتمامه لتكون في المكانه اللائقة بها كعاصمة للدولة الجديدة، واهتم محمد بلّو بنظافتها، وشجع على العمران والسكن فيها(السير السيد العراقي،1983، ص61). فأصبحت فى فترة وجيزة أم المدائن ومركز التجارة الذى فاق مركزي كانو وكاتسينا وأضحت بذلك قبلة العلوم والآداب ومعين الثروة والرخاء(السير السيد العراقي،1983، ص61).

وهذا ما لاحظه الرحالة بارث Barth عند زيارته للمدينة من ازدهار اقتصادي حيث التنوع الكبير في السلع المعروضة للبيع، ووصف في كتاباته المعاملات التجارية بين البائع والشاري كما لاحظ الكميات الكبيرة من المنتجات الحديدية والجلدية(Heinrich Barth,1857, p515.)

ومن بين أهم الأماكن التعليمية المعاهد التي تأسست بعد نشأة مدينة سكوتو في أوائل القرن التاسع عشر فمن أهمها معهد الشيخ عثمان بن فودي كان من اكبر المعاهد الدينية التي تفرعت منه عدة فروع لا في سكوتو وحدها بل في جميع أنحاء الإمبراطورية وبعد وفاته عام 1817 خلفه ابنه محمد بلو على هذا المعهد، وان كانت الأمور السياسية قد أخذت معظم وقته، ولم تمكنه من القيام بالتدريس كثيرا، ومن المعاهد أيضا معهد محمد غطاطو طن ليما هو معهد من اكبر المعاهد نشاطا في نشر العلم (علي أبو بكر،1963، ص100)، بالإضافة إلى النشاط الاقتصادي الكبير كان هناك نشاط علمي عززه كبار المسؤولين في الدولة مثل الوزير محمد غطاطو طن ليما الذي شجع التعليم القرآني. وفتح بيته للعلماء والمعلمين لتعليم طلابهم القرآن والعلوم الإسلامية. كانت عائلة الوزير هي نفسها أكبر مجموعة من العلماء والقضاة في سوكوتو(Murry last,1967 p182.)، ومن أشهر المعاهد أيضا الأستاذ

الشيخ مصطفى كان عالما تقيا وأستاذا متفننا حيث أمه طلاب العلم من جميع نواحي الامبراطورية (علي أبو بكر، 1963، ص101).

ومن بين علماء سكوتو الذين اشتهروا في هذا القرن و أسّسوا معاهد الشيخ إسحاق كان عالما كبيرا له تآليف في النحو التصريف والمعاني والعروض والمنطق والفقه والحديث والشعر والشيخ مصطفى الملقب بمالم تفا الشيخ الإمام سابون يرني أبي بكر قاض القضاة ابوبكر الملقب ببوبس فقد كان أستاذا متضلعا في العلوم قضى حياته كلها في طلب العلم ونشره، ومنهم الشيخ رغا تتلمذ على يد الحسن بن مصطفى وكان يلقي دروسه في مسجد الشيخ عثمان بن فودي، ومنهم الشيخ سعيد بن عثمان وأخوه عبد القادر كانا من أكبر علماء الفقه في حياتهما (علي أبو بكر، 1963،ص ص 102 -104).

2.1 -حاضرة كـــانو(kano) :

تعدّ كانو من أشهر إمارات بلاد الهوسا، وهي إقليم شاسع مترامي الأطراف على بعد خمسمائة ميل شرق نهر النّيجر، ويحدّه من الغرب إقليم أغاديس(الحسن الوزان: ، 1983، ص173)ويحتوي هذا الإقليم على أنهار وجبال ووديان وسهول، مما ساعد على وجود الأشجار المختلفة فهي بلاد بركة(محمد بلّو، 2011، ص44)، ومدينة هذا الإقليم لها سور مبني بالرّكائز والطّين، ودُورُها مبنية بنفس المواد (الحسن الوزان، 1983، ص173)، تقع مدينة كانو، وهي ثاني أكبر مدينة في خلافة سكوتو في مقاطعة ذات كثافة سكانية عالية وذات الاسم نفسه. منازلها مبنية من الطين. والمنازل التي يسكنها السكان الأصليون لها أسقف مخروطية الشكل، أمّا المنازل التي يشغلها العرب فمسطحة، وعامرة بالمحلات التجارية، مليئة بالمنتجات المحلية والأجنبية، مع تنوعها(Donald Mackenzie,1877, p129-131)، وتعتبر كانو أوفر حظاً في حفظ تاريخها دون سواها فتاريخها معروف بفضل حولياتها، وثراء رواياتها الشّفوية ،لقد كانت كانو من حأعظم الإمارات في بلاد الهوسا ، فهي الأكثر سكانا، و موقعها المركزيّ أَهّلها لتكون ملتقى القوافل التّجارية الّتي تدفّقت من غات وغدامس عبر طرابلس، حيث كانت أسواقها عامرة ومزدحمة بالتّجار والحرفيين، الّذين كانوا متلهّفين للعمل كسماسرة لشراء الفائض من السّلع، وتصديرها إلى

المدن المجاورة (M. G. Smith, 1977 , pp 22-23)، كما كانت أَسْبَقَ مَمَالك الهوسا دُخولا في الإسلام، وذلك في القرن الثّامن الهجري أي الرّابع عشر ميلادي، في عهد الملك ياجي بن تساميا حين وفد إليها جماعة من العلماء الونغارة من مالي دعوا ملوكها إلى الإسلام فاستجابوا لهم، وقد قاد هذا السّاركن حروباً طويلة ضدّ الوثنيين في إمارته، وانتصر عليهم وحطّم أوثانهم وبنى مسجداً في مكان الصّنم الّذي كانوا يعبدونه(H. R. , pp70-72 Palmer1908).

وقد احتلت كانو مكانه كبيرة في عهد الملك التّاسع يعقوب،حيث نشطت حركة هجرة الفلاتة، كما هاجر إليها عرب الشّمال وقبائل الصحراء، وانتعشت تجارة الملح، ونما التّبادل التّجاري بينها وبين مناطق الجنوب، وقصدها كبار التّجار والأعيان والأثرياء، وازدهرت فيها العلوم الدّينية وانتشر التّعليم في المساجد والكتاتيب القرآنية (يحي بوعزير، ، 2009، ص 116)

ومن أشهر ملوكها محمد رمفا (1436 -1499م)، إذ في عهده شهدت كانو أزهي عصورها، وقدمها الشّيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ/1503م)، وقطنها وتولّى بها القضاء والإفتاء (عبد الله آدم الآلوري ،1965، ص82)، وطلب منه الأمير أن يكتب له رسالة في أمور السّلطنة وشؤونها وكيفية ممارسة الحكم فكتبها له عام 1492م، وقد شَيّد الأمير رمفا عددا من المساجد، و شجع التعليم، وبنى عددا من الدور والمساكن، وبنى حولها سوراً له سبعة أبواب (يحي بوعزير، 2009، ص 116)، فكانت مركزا ثقافياً، وتجارياً هاماً في بلاد الهوسا، فأصبحت مقصداً للطّلاب والعلماء، وكذا قوافل التّجارة(عبد الله آدم الآلوري ،1965، ص82)

إلاّ أنّ النّزاعات القائمة بينها وبين جاراتها سلبتها أهمّيتها، وفي القرن الحادي عشر الهجري السّابع عشر الميلادي أصابها ضعف شديد جرّاء الهجوم الّذي شنّته عليها كلٌّ من برنو من الشّرق وكبي وكاتسينا من الغرب، وخلال القرن الثّامن عشر الميلادي تعرّضت كانو لغزو من طرف زمفرا وغوبر، فتدهورت أوضاعها الاقتصادية والسّياسية، وغادرها عدد كبير من النّاس، وبقيت تصارع صامدة ، حيث تمكّنت من استعادة استقلالها عدّة مرات، إلى أن دخلت تحت نفوذ

الشّيخ عثمان بن فودي في مطلع القرن التّاسع عشر الميلادي، لتقع في بداية القرن العشرين وهذه المرّة تحت وطأة الاستعمار البريطاني(يحي بوعزير، 2009، ص 117)

ولأنها مركز تجاري وثقافي فقد عجت بطلاب العلم لكثرة معاهدها ومساجدها وعلمائها خلال فترة خلافة سكوتو فمن أشهر معاهد التعليم فيها معهد كبرا وقد أنشأه الشيخ عمر بن مختار حوالي 1887م، وله عدة مؤلفات معظمها في أصول الدين، ومن بين المعاهد معهد النائب مؤسسه هو الشيخ سليمان وكان إماما لمسجد كانو في عهد أمير كانو سليمان وقد خلفه في التدريس حفيده الشيخ آدم وقد كان أستاذا متفننا أتقن معظم العلوم ودرس عنده الوالي سليمان والوالي أبو بكر، ومعهد مدابو للشيخ عمر باجوس أسسه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكان متخصص في تدريس مختصر خليل بن إسحاق والكتب الفقهية الأخرى كرسالة بن أبي زيد القيرواني، ومعهد التفسير للحاج ناصر وكان الشيخ بن زوري والحاج ناصر هما اللذان أنشآه فكان الثاني يتلو على حين يقوم الأول بتفسير الآيات إلى لغة الهوسا معهد ثروماوا للحديث أنشاه الشيخ يوني، وكذلك معهد الإمام بن محمد عبد الله بن جبريل بن محمد الملقب بدند تلقى علومه عن الشيخ عبد الله في غوند(علي أبو بكر، 1963، ص ص 106 -108)

هذا ومن أشهر علمائها الوالي سليمان والأستاذ ماجي إسحاق والشيخ جلال والشيخ إبراهيم نظفي الكبري كان يتقن الحساب القديم لعبد الواحد الجرجاني ومنهم المعلم عمر أنو الذي كان منقطع النظير في عصره ومنهم المعلم الحاج بحطيجة كان يجيد الفقه وعلم الفلك(علي أبو بكر، 1963، ص 109).

3.1 - حاضرة كاتسينا(katsina) :

اشتهرت كاشنة باسم زوجة الرّجل الّذي أسّس المدينة ويدعى جنزما (عبد الله آدم الآلوري ،1965، ص78)، وتسمّى أيضاً كاتسينا، تقع إلى الشّرق من إقليم كانو (الحسن الوزان، 1983، ص173) تقع على طريق القوافل المباشر إلى أغاديس ومنتجاتها متنوعة وغنية، وتوجد نباتات نيلي وحقول التبغ في جميع

أنحاء كاتسينا. وبساتينها المتنوعة المزروعة بكثافة، وتوجد بها أراضي للرعي حيث تنتشر تربية المواشي (Donald Mackenzie,1877, p139)، فيها جبال وسهول، وأراضيها وعرة من منتجاتها الشّعير والدّخن(الحسن الوزان: ، 1983، ص173)،وهي مسورة بجدار ضخم يبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثين قدمًا ، وطوله حوالي ثلاثة عشر ميلاً والمنازل فيها مبنية من الطين(Donald Mackenzie,1877, p141,)، وقد كانت عبارة عن مقاطعات تتكلّم الهوسا كلّها، أشهرها دوربي، و تا، وكوشيي فيما كان ذلك حوالي القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر الميلاديين (مهدي آدامو، 1988،ص 280)، وسكانها من الفولّان والبربر والعرب والونغارة والطّوارق، وقد تحضّرت، و ازدهرت بأسواقها، وأصبحت مقصد القوافل التّجارية من بلاد المغرب و بورنو و سنغاي (عبد الله آدم الآلوري ،1965، ص79).

ولوقوعها على طريق القوافل التّجارية الممتدّ من بلاد برنو إلى تمبكتو ثم إلى بلاد المغرب فقد نالت شهرة واسعة في مجال التّجارة، وبذلك احتلّت من بين جميع دول الهوسا مكانة مرموقة، تُنافس فيها كانو كمركز اقتصادي وعلمي كبيرين،ونظرا لموقعها الجغرافي الذي جعلها أكثر احتكاكا مع روّاد التّجارة سواءً من جهة الغرب أو من جهة الشّمال(بوفيل ، 1988 ، ص368)، ولمّا تسرّب إليها الإسلام عن طريق التّجار الوافدين إليها من الوانغارة والعرب والبرابرة، أصبحت من أكبر مراكز الثّقافة الإسلامية لغرب إفريقيا، حيث نبغ علماؤها أمثال عبد الله ثقة وابن الصّباغ وابن منسى ومحمد مود بن محمد، كما زارها علماء كثيرون أمثال السّيوطي و غيرهم (عبد الله آدم الآلوري ،1965، ص ص 79 -80). وفي عهد الملك محمد كوراو (849 -901هـ/ 1445 -1495م) حلّ الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ/ 1503م) بكاتسينا وفي الفترة نفسها بنى مسجد غوبرو على غرار مساجد غاو وجني (مهدي آدامو، 1988، ص 280).

ثم يأتي عهد الملك إبراهيم سورا (899 -905هـ/1493 -1499م) الّذي عُرف بشدّته وحزمه، فكان يجبر النّاس على أداء الصّلاة ومن يمتنع كان مصيره

السّجن، وقد سُجّلت له مراسلات مع الإمام السّيوطي (مهدي آدامو، 1988،ص 280.) (.

ويذكر أنّ كاتسينا تعرّضت لحملة من طرف الأسقيا الحاج محمد الأول في حدود 919هـ/ 1513م ضُمّت على إثرها إلى مُلْك الأسقيين(عبد الرحمن السعدي: 1898، ص 78)، حتى كان عهد الملك مقجن خالد كان آخر ملوك كاتسينا ليخلفة عمر دان لاجي 1222هـ/ 1807م أول حاكم لها عند قيام خلافة سكوتو(H. R. Palmer ,1927, p225)، والواضح أن الإسلام قديم العهد بمدينة كاتسينا، وأهلها هم الذين حملوه إلى كانو، وزاريا وما جاورها من البلدان (عبد الله آدم الألورى، 2012، ص31.)، حيث أسلم أهلها على أيدى التجار الونغارة والبرابرة والملثمين والعرب الوافدين إلى أسواقها الكبيرة ويعود تسرب الإسلام إليها إلى أواخر القرن العاشر، ومطلع القرن الحادى عشر الميلاديين بعد إسلام الملثمين واستقرار البرابرة عليه مباشرة غوند (علي أبو بكر،1963، ص ص 19 -20).

وعليه فقد سبقت مدينة كاتسينا جميع بلاد الهوسا إلى ميدان الحضارة والعمران لأنها تقع على ملتقى القوافل التجارية القادمة من مصر شرقا، ومن تمبكتو شمالا، ومن غانة غربا، وارتبطت المدينة بالبلاد الإسلامية الإفريقية الشمالية ارتباطا تجاريا قويا منذ مطلع القرن العاشر الميلادي، وبذلك كان لمدينة كاتسينا الدور البارز والنشاط العظيم فى نشر الإسلام بين بلاد الهوسا(عبد العزيز أحمد آدم ماش، 2010، ص 15).

وسارت الحالة العلمية بالخلافة خلال القرن التاسع عشر الميلادي على وتيرة جيدة حيث نشطت الحركة العلمية والثقافية بفضل معاهدها المنتشرة في أرجائها فمن أشهر معاهد حاضرة كاتسينا على الإطلاق معهد الحنبليين مؤسسه هو الشيخ محمد غيمغا أصله من مالي وكان رجلا عالما ورعا فقيها، ساهم المعهد في نشر العلم وقد تولى عدد كبير من علماء المعهد مناصب القضاء ، وكذلك معهد درما الذي أنشأه الشيخ أبو بكر الفقيه واللغوي،ويرجع تاريخه أيضا إلى قبل ظهور الشيخ عثمان بن فودي وقد الذي كان يجمع بين وأيضا معهد السوق القديمة الذي أنشاه الشيخ بلادن بن عثمان بن يحي بن محمد

البكري حوالى1243هـ/ 1827م، وكان عالما تخصص في الفقه ويرجع شيوخ هذا المعهد أن أجدادهم أتوا من مصر وبعد أن استقروا ببرنو مدة طويلة غوند(علي أبو بكر،1963، ص ص 110 -111).

4.1 - إمارة زاريا Zaria:

زاريا المعروفة قديما باسم زكزك(عبد الله آدم الآلوري، 1965 ص 75)، وعرفت بعدة أسماء منها زازو Zazzau، وزغزغ. وزارية إقليم واسع وكبير (محمد بلو:2011، ص44)متاخم لإقليم كانو من جهة الجنوب الشّرقي، وتبعد عن كاتسينا بنحو خمسين ميلاً، وسكانها أغنياء يمارسون التّجارة بشكل كبير(الحسن الوزان، 1983، ص174) مماّ جعلها تتمتّع بنشاط تجاري كبير(مارمول كربخال، 1989، ص 208)، ولكنها تختلف عن كانو وكاتسينا فهي لم تكن ملتقى لطرق القوافل التجارية(شيخو أحمد سعيد غلادنث، 1982، ص50.).

وبالإضافة إلى التّجارة كان هناك نشاط زراعي مهم لوفرة المياه وكثرة الحبوب، وقد تأثرت بكانو في مختلف المجالات خاصة المفاهيم والقيم الإسلامية (عبد الفتاح مقلد الغنيمي، 1985، ص ص161 -162)، ظهرت قبيل القرن الخامس عشر الميلادي مدينتان على المسرح السّياسي هما ترونكو وكوفينا حيث بسطت كلاً منهما سيطرتها على المدن الأخرى، وفي نهاية القرن الخامس عشر الميلادي استطاع ملك ترونكو القائد بكوا أن يتسلّم السّلطة من كوفينا وعبر هذا التّطور السّياسي استقرّ ملوك زازو وبنوا عاصمتهم الجديدة، المسماة زاريا نسبة لابنة للقائد بكوا، وتذكر المراجع إن أول ملك اعتنق الإسلام هو محمد ربا Raba وكان ذلك في أواخر القرن الخامس عشر (شيخو أحمد سعيد غلادنث، 1982، ص50)، وفي سنة 919هـ/ 1513م ضمّها الأسقيا الحاج محمّد الأوّل إلى ملكه (الحسن الوزان، 1983، ص174)، ومنذ القرن السّادس عشر الميلادي أخذت في التوسّع شرقاً وغرباً على حساب جاراتها (مهدي آدامو، 1988، ص 281)، وبظهور خلافة الشّيخ عثمان بن فودي في مطلع القرن التّاسع عشر الميلادي على ممالك الهوسا أصبحت زاريا جزء من هذه الخلافة وتمثل إحدى مقاطعاتها الهامة(M.G.Smith, 1960, p73)، ومن أهم مراكز

التعليم فى البلاد، ووفد إليها كثير من طلاب العلم واشتهرت بعلوم اللغة والنحو (شيخو أحمد سعيد غلادنث، 1982، ص51)

ومن أهم معاهد حاضرة زاريا معهد حارة جوبا ومعهد إمام كونا للشيخ هارون بن جبريل ويرجع تاريخ كل منهما إلى عهد قديم وكان نشاطهما في أول الأمر منحصرا في نشر مبادئ الإسلام وإمامة المسلمين للصلاة وبانتشار الإسلام في أوائل القرن التاسع عشر اخذ المعهدان يركزان نشاطهما في نشر العلم والثقافة وتكاد تنحصر إمامة صلاة الجمعة في جامع زاريا الكبير بين شيوخ المعهدين، ومعهد كاكاكي تم تأسيسه في أوائل القرن التاسع عشر على يد الشيخ الحاج محمد وهو متخصص في علم الفقه، ومعهد والي عمر كان مؤسسه من اكبر علماء بلاد الهوسا في عصره حيث تم تأسيسه في النصف الثاني من القرن التاسع،ومعهد قوفو دوكا ومؤسسه هو الشيخ ألفا عمر كان أستاذا متفننا يتقن علوما كثيرة(علي أبو بكر،1963، ص ص 112 -114).

2 -مظاهر ازدهار الحركة الفكرية والثقافية:

من أهم مظاهر الحياة العلمية في خلافة سكوتو وسائل نشر العلم والثقافة الإسلامية فيها، ويرجع ظهور هذه الوسائل في السودان الغربي منذ وصول الإسلام إلى جنوب الصحراء الكبرى وكان التعليم من الدعائم الأساسية التي يركز عليها علماء المسلمين فى نشر دينهم في كل مكان يصلون إليه، وتحمل هذا الأمر في بدايته التجار المسلمون، والدعاة والمعلمون الذين وصلوا إلي بلاد السودان الغربى (أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي ،1992، ص 334.)، وكان لبلاد الهوسا نصيبها حيث قصدها العلماء والفقهاء والدعاة وكان لهم الفضل في إسلام الملوك والرعية وعلى غرار الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ/ 1503م)، كان أيضا الشيخ مخلوف بن على بن صالح البلبالي(ت 940هـ/1553م) الذي تصدر الدعوة بكانو وكاتسينا(أحمد بابا التمبكتي، 1964، ص 608.).

ومن أهم المظاهر أن كانت اللغة العربية لغة مشتركة للمتعلمين، وكان في كثير من الأحيان الوسيلة الوحيدة للاتصال بين مجتمعات الطوارق أو كانوري أو الهوسا أو الفولاني أو النوبي أو اليوروبا. علاوة على ذلك أن اللغة العربية

أصبحت في خلافة سكوتو هي لغة الدولة الرسمية(Murry last, 1967p , 192)، ولغة الدواوين والمعاملات والمراسلات والتعليم والمناظرات، وكذلك انتشار المخطوطات وازدهار تجارتها، وكثرة المساجد والمدارس القرآنية

3 -النشاط التعليمي:

يرجع الفضل لأولية تعليم اللغة العربية في هذا القطر العظيم إلى التجار والدعاة الأوائل الذين دخلوا البلدة أفرادا ووفودا إما طلبا للرزق أو نشر الشعائر الدينية، وكان ذلك لوجود طرق القوافل المارة من مراكش وتلمسان وتونس وطرابلس ومصر عبر الطرق المعروفة بالصحراء الكبرى، سبب ذلك العلاقات المتينة التي كانت بين أهاليها وبلاد العرب في الشمال.

وبسقوط مملكة سنغاي في نهاية القرن السادس عشر، أصبحت بلاد الهوسا عامة وكاتسينا خاصة ملاذا لكثير من العلماء القادمين من تمبكتو وجاو وجني، فازدهرت المدينة علميا واقتصاديا وفاقت شهرتها الآفاق فصارت مقصدا لطلاب العلم وقوافل التجارمن كل أنحاء غرب إفريقيا(Sidney john Hogben, , 1930,p 93.)

وقد اشتهرت الأسرة الفودية الحاكمة بالعلم والدين، فكان الشيخ عثمان وأجداده وأبناؤه من بعده ممن اشتهروا بالعلم، وتولوا مهنة تعليم الناس العلوم العربية والشريعة في بلاد الهوسا(M. Hiskett, , 1957, pp 552-556)، فقد جعلوا التعليم الركيزة الأساسية لبناء الدولة، ولم يشغلهما تصريف شؤون الدولة عن التعليم، حتى إن الشيخ عثمان في أواخر حياته تنازل عن شؤون الإدارة في الدولة لابنه محمد بلو، وأخيه عبد الله بن محمد فودي، وتفرغ هو للعبادة والتعليم (محمد بلو، 2011، ص 190)، ولم يهمل قادة الخلافة جانب التّأليف لأهمّيته، فعكفوا على إنتاج المخطوطات العربية، والإسلامية بغية إصلاح المجتمع الهوسوي، وتزويده بشتّى المعارف، والأفكار الإسلامية (رفاعي الحاج إسماعيل،2013، ص 2)، وكان للمناخ الاجتماعي، والدّيني والثّقافي والسّياسي السّائد في بلاد الهوسا خلال القرن التّاسع عشر دوره في دفع حركة التّأليف، حيث ازدهرت الكتابة باللّغة العربية وانتشرت المخطوطات العربية الإسلامية وتطوّرت (رفاعي الحاج إسماعيل، 2013، ص 2)، ويذكر عبد الله بن فودي جملة

من الكتب التي كانت تدرس في مدارس ومساجد بلاد الهوسا كتب السنوسية وشروحها والملحة والأجرومية وقطر الندى في افعراب وكتب الفقه كالأخضرية والعشماوية و رسالة بن أبي زيد القيراواني، و في الحديث صحيح البخاري وغيرها من أمهات الكتب في مختلف العلوم, (M. Hiskett 1957.552-556 pp ,)

4 -المؤسسات التعليمية في حواضر خلافة سكوتو:

1.4 -المساجد:

تعد المساجد من أهم المؤسسات التي أوكلت لها مهمة نشر العلم والمعرفة منذ فجر الإسلام وانطلاق الفتوحات الإسلامية من بلاد المغرب الإسلامي إلى إفريقيا جنوب الصحراء، فهي تعتبر اللبنة الأساسية في هذا المجال، كما يعود لها الأثر البارز والدور الكبير في إرساء دعائم التعليم في البلاد الإسلامية عامة وبلاد الهوسا بخاصة .وعموما تمثلت مساجد خلافة سكوتو خلال القرن التاسع عشر في مساجد العاصمة سكوتو، التي كنت تضم مسجدين كبيرين ومسجد بني تحت إشراف الوزير غدادو،هذا ما يؤكد اهتمام حكام الخلافة ووزرائها ببناء المساجد حسب ما أورده الرحالة كلابرتون حينما زار العاصمة سكوتو ذكر أنها كانت تحوي ثلاثة مساجد دون ذكر لأسمائها، وبين اهتمام الوزير وحرصه على متابعة أشغال البناء (كلابرتون وآخرون، 2003، ص 207)، وهكذا كل المدن في خلافة سكوتو اهتمت ببناء المساجد وعمارتها، فكانت تقام فيها الصلوات، وأيضا مراكز لتعليم قراءة وكتابة القرآن الكريم.

2.4 - المدرسة القرآنية أو الكتاتيب:

انتشرت الكتاتيب في جميع أنحاء مملكة سكوتو انتشارا واسعا وذلك منذ بداية القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، وكانت أمكنة المكاتب وكثرة انتشارها ووجودها في المساجد، أهم ما تتميز به المدن الإسلامية في خلافة سكوتو، وللمدرسة القرآنية أسماء عديدة منها مكرنترالو Makrantaralo أي مدرسة الألواح حيث يستعمل التلاميذ الألواح الخشبية، ومكرنتر توكا Makrantartoka بمعنى مدرسة الرماد وهذا لأن التلاميذ يقرأون ليلا بايقاد الحطب فيخلف رمادا كثيرا، وتسمى مكرنتر القرآن أي مدرسة القران، وكذلك من الأسماء مكرنتر محمديه أي المدرسة المحمدية (عبد الرحمن علي

مكي، ، 1987، ص 64)، ويلتحق بهذه المدارس التلاميذ من سن ثلاث سنوات إلي نحو الرابعة عشرة من العمر ،وفيها يتعلمون مبادئ القراءة والكتابة وختم قراءة القرآن الكريم، وتكون مستقرة في المسجد أو بيت المعلم أو تكون متجولة من قرية إلى أخرى، يعسكر فيها التلاميذ خارج القرية وينعزلون فيها عن المجتمع فكانوا يعكفون على التعليم والتركيز في تحصيل العلم (الطاهر محمد داود، 2011، ص ص 52 -53).

خاتمة:

لقد كان لحركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية الدور الأساسي في بعث الإسلام الصحيح في بلاد الهوسا، وأكمل خلفاؤه من بعده قيادة الدولة والمسيرة العلمية على النهج الذي رسمه لهم، فنشط الاقتصاد وازدهرت الحياة الاجتماعية والثقافية، واتسع العمران، وبنيت المدن وشيدت الدور، وأقيمت المساجد، وأسست المدارس والمعاهد، وعمرت بالمكتبات والمخطوطات، مما فتح المجال واسعا أمام النهضة العلمية التي لم تشهد مثلها بلاد الهوسا في مختلف العصور إلا على عهد خلافة سكوتو طيلة القرن التاسع عشر الميلادي.

وتعتبر حواضر خلافة سكوتو كانو وكاتسينا وزاريا وسكوتو وغيرها من المدن الأخرى نموذجا للحواضر في البلاد الإسلامية الأخرى، فكونها مراكز تجارية هامة فقد أصبحت أيضا مراكز علمية وثقافية تهوي إليها أفئدة العلماء كما أصبحت قبلة لطلاب العلم من أنحاء البلاد الإفريقية.

شهد التاريخ الثقافي لحواضر خلافة سكوتو نشاطا كبيرا للمساجد التي بنيت في مناطق مختلفة، والتي كان لها دور بارز في بث العلوم والثقافة، وترسيخ مقومات الشخصية الإسلامية، والحفاظ عليها فكان المسجد بحق مدرسة دينية، ومركز يجمع بين العلماء والطلبة ومركز إشعاع علمي وحضاري يقوم على تدريس مختلف العلوم الدينية في مختلف المراحل التعليمية.

وقد برز علماء أفذاذ على رأسهم حكام الدولة ووزرائها وقضاتها قادوا هذه النهضة العلمية والفكرية إلى الإمام تدريسا وتأليفا في الفقه والتفسير والحديث النبوي، وعلوم اللغة العربية وآدابها ومختلف العلوم الأخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

1 -المصادر العربية:

1. . كعت محمود، (1913)، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، مطبعة بردين، أنجي.
2. التمبكتي أحمد بابا ،(1964)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة العربية، القاهرة،.
3. الشريشي أحمد بن عبد المؤمن القيسي(1992)، شرح المقامات للحريرى البصرى، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،ج1،المكتبة العصرية ، بيروت.
4. الوزان الحسن، (1983)، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ج2،ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت،.
5. كلابرتون، الميجور دينهام، الرحالة أودني،(2003)، رحلة لاكتشاف إفريقيا، ترجمة عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، ج2، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، .
6. السعدي عبد الرحمن، (1898) تاريخ السودان، طبعة هوداس، فرنسا، ط1.
7. بلو محمد ، (2011)، انفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور، تح: عبد المنعم ضيفي عثمان عبد النعيم ط1، المكتبة الأزهرية للتراث،.

2 - المراجع العربية:

8. غلادنث شيخو أحمد سعيد،(1982)، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا من سنة1804م – 1966م، دار المعارف،
9. الآلوري عبد الله آدم ، (1965)، موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت.
10. كربخال مارمول، (1989)، إفريقيا، تر محمد حجي، ج3، دار نشر المعرفة، الرباط،.
11. آدامو مهدي، (1988)، الهوسا وجيرانهم بالسودان الأوسط، تاريخ افريقيا العام، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، لبنان،م 4.
12. بوعزير يحي،(2009)، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية، دار البصائر، الجزائر.
13. -الألورى آدم عبد الله، (2012)، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودى الفلاني. مكتبة وهبة للطباعة والنشر، القاهرة،.
14. بوفيل،(1988)، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير المرجع، تر: الهادى ابو لقمة، محمد عزيز، ط2، منشورات جامعة قاريونس، بنغازى.
15. زبادية عبد القادر،(د.ت)، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين(1493 -1591م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،
16. العراقي السير السيد، (1983)، نظام الحكم الخلافة الصكتية، ط1، مطبوعات كلية الدراسات العليا، جامعة الخرطوم.

17.الغنيمي عبد الفتاح مقلد، (1985)، حركة المد الإسلامي في غرب افريقيا، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة.

3 - المقالات:

21 -داود الطاهر محمد، (2011)، المدارس القرانية في نيجيريا نشأتها نظامها وافاق المستقبل، المؤتمر العالمي للقران الكريم ، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم.

22 إسماعيل رفاعي الحاج، (2013)، دور المخطوطات العربية الإسلامية لقادة الخلافة الصكتية، في إثراء اللغة العربية في نيجيريا، مقالة مقدمة إلى المؤتمر الدولي للغة العربية الثاني، دبي.

4 - الرسائل الجامعية:

18.مكي عبد الرحمن علي ، (1987)، مؤسسات التعليم العربي الاسلامي في شمال نيجيريا 1200 -1400هـ، رسالة ماجستير، اشراف: الفاتح أحمد عبد السلام، معهد الدراسات الافريقية والأسيوية، جامعة الخرطوم.

19.أبو بكر علي، (1963)، الثقافة العربية في نيجيريا، رسالة دكتوراه، إشراف: عبد العزيز الأهواني ، آداب جامعة القاهرة.

20.ماش عبد العزيز أحمد آدم، (2010)،الفصل والوصل في قصائد علماء كاتسينا نيجيريا، إشراف: محمد الحسن علي الأمين، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة أم درمان الاسلامية.

5- المصادر باللغة الأجنبية:

21. - Donald Mackenzie,) 1877 (, The flooding of the Sahara : an account of the proposed plan for opening Central Africa to commerce and civilization from the north-west coast ; with a description of Soudan and western Sahara, and notes of ancient manuscripts, London,.
22. - Heinrich *Barth,* **)** 1857 **(,** Travels and discoveries in North and Central Africa. Being a journal of an expedition undertaken under the auspices of H.B.M.'s government, in the years 1849-1855 New York, Harper & Brothers,.

6- الوثائق المنشورة:

23. - H. R. Palme,) 1908 (, The Kano Chronicle, Vol 38, The Journal of the Royal Anthropological, Institute of Great Britain and Ireland,.
24. - M. Hiskett,) 1957 (, Material Relating to the State of Learning among the Fulani before Their Jihād, Vol. 19 No. 3, B. S. O. A. S, University of London,.

7- المراجع باللغة الأجنبية:

25. - M. G. Smith,) 1997 (, Government in Kano1350-1950, Westview Press..
26. - M.G.Smith,) 1960 (, Government In Zazzau18001950-, International African Institute, Oxford University Press, London,.
27. - Murry last,) 1967 (, The Sokoto Caliphate (Ibadan history series), Humanities Press.
28. -Sidney john Hogben,) 1930 (, The Muhammadan Emirates of Nigeria, Oxford University Press, London,.

8- المقالات باللغة الأجنبية:

29. - H. R. Palmer,) 1927 (, History of Katsina, Vol. 26, No. 103, J.R.A.S, Oxford University Press,.